بين يدي السورة :

سورة مكِّيَّة بالاتفاق ، وتشتمل على اختلاف الكفار حول البعث والحساب بين مُنْكر وشاك ، وتذكير الله تعالى هؤلاء وأولئك ببعض نعمه عليهم تلك النعم الدالة على قدرته تعالى وإبداعه ، ثم بيَّن الله تعالى أنه لا بد من يوم فصل يبعث الله الناس جميعاً ويحاسبهم على ما قدَّموا وأن النار مثوى الكافرين الطغاة الذين تمتَّعوا بنعم الله وكفروا بالمُنْعِم في الدنيا فاستحقُّوا أن يحرموا من نعيمه في الآخرة بل ويذوقوا عذابه ، أما من آمنوا بالبعث والحساب واتَّقوا عذاب يوم القيامة بالإيمان بالله وطاعته في الدنيا فيجازيهم الله تعالى بأحسن ما عملوا وفي هذا ردٌّ على من أنكر البعث والحساب يتمنون يوم القيامة ألا يكونوا قد بعثوا ولكن هيهات .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ
أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ
لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا
سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا
وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ
فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ
ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾

لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمٗا
وَغَسَّاقٗا ﴿٢٥﴾ جَزَآءٗ وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ
إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا
﴿٣٣﴾ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴿٣٥﴾ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ
عَطَآءً حِسَابٗا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ
مِنۡهُ خِطَابٗا ﴿٣٧﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ
أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ
مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ
وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾

اللغويات:

﴿النَّبَإِ﴾ الخبرُ ، وما له وقعٌ ، وشأنٌ عظيمٌ ﴿مِهَادًا﴾ الفراشُ ، والأَرضُ المنخفضةُ المستوية ﴿أَوْتَادًا﴾ وَتَدَ فلانٌ في بيته : أَقامَ وثَبَتَ ، أَوْتَادُ الخَيْمَة : مَا تُثَبَّتُ به الخَيْمَةُ في الأَرْضِ منْ خَشَبٍ أَوْ حَدِيدٍ ونَحْوِهمَا ﴿سُبَاتًا﴾ السُّبَاتُ : الراحَةُ ، والنَّومُ ﴿لِبَاسًا﴾ اللِّبَاسُ : ما يَستُرُ الجسمَ ، ولِباسُ كلِّ شيء : غِشاؤه ﴿مَعَاشًا﴾ المَعَاشُ : ما تكونُ به الحياةُ من المَطْعَم والمَشْرَب ونحوهما ﴿سِرَاجًا﴾ السِّراج : المِصْباح الزَّاهر ﴿وَهَّاجًا﴾ الوَهَجُ : حَرُّ النَّهار ، والشَّمس ونحوهما ، وَهَجُ الشَّمْس : سُطُوعُ حَرِّهَا ﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾ السَّحائبُ تعتصرها الرياح بالمطر ﴿ثَجَّاجًا﴾ الثَّجَّاج : الشديد الانصباب ﴿أَلْفَافًا﴾ حديقة لَفٌّ : مُلْتَفَّةُ النَّبَات وَالأَغْصَان ﴿الْفَصْلِ﴾: الحَاجزُ بين الشيئين ، ويومُ الفصلِ : يومُ القيامة ﴿مِيقَاتًا﴾ الميقَاتُ: المَوْعِدُ الذي جُعِلَ له وقتٌ، والآخرة ميقات الخَلْق : مَوْعِدُهم ﴿الصُّورِ﴾: شيءٌ كالقَرْن يُنْفَخ فيه، وبوق ينفخ

فيه أحد الملائكة وهو إسرافيل ﴿أَفْوَاجًا﴾ جمع فَوْجُ : الجَمَاعةُ من الناس ﴿سَرَابًا﴾ السَّرَاب : ظاهرة طبيعية ترى كمسطحات الماء تلصق بالأرض عن بعد ، تنشأ عن انكسار الضوء في طبقات الجو عند اشتداد الحر ، وتكثر بخاصة في الصحراء ﴿مِرْصَادًا﴾ المِرْصادُ : طريق الرَّصْد والمُراقبة ، أو موضعه ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ طَغَى : تجبَّر وأسْرَف في الظلْمِ ﴿مَآبًا﴾ مَرْجِع ومُنْقَلَب ﴿لابِثِينَ﴾ لَبِثَ بالمكان : مَكَثَ وأقَام ﴿أَحْقَابًا﴾ دُهُورًا مُتَتابعة لا نهاية لها ﴿بَرْدًا﴾ بَرَد بَرْدًا، وبُرُودًا : هَبَطَت حَرَارَتُه ﴿حَمِيمًا﴾ الحَمِيمُ : الماءُ الحار ﴿غَسَّاقًا﴾ الغَسَاقُ : ما يَسيلُ من جُلُود أهل النَّار وصديدهم ﴿وِفَاقًا﴾ وافق فلانٌ بين شيئين : لاءَم بينهما ، وفاقًا لكذا: تَبَعا لكذا ﴿أَحْصَيْنَاه﴾ أُحْصَى الشيءَ : عَرَف قَدْرَه ، أَحْصَى الكِتَابَ : حَفِظَه ﴿مَفَازًا﴾ المَفَازُ : الفَوْزُ ﴿كَوَاعِبَ﴾ كَعَبَت الفَتَاةُ كُعُوبًا : نَهَدَ ثَدْيُها ﴿أَتْرَابًا﴾ جَمْع التِّرْب : المُمَاثِل في السِّن ﴿دِهَاقًا﴾ دَهَقَ الكَأْسَ : مَلأَها ، وماءٌ دِهاقٌ : ماءٌ كَثيرٌ ﴿لَغْوًا﴾ اللَّغوُ : ما لا يُعتدُّ به من كلام وغيره ، ولا يُحصَل منه على فائدة ولا نفع .

المعنى الإجمالي للآيات :

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ عن أي شيء يسأل أهل مكة بعضهم بعضاً ؟! إنهم يتساءلون عن خبر مهم وهو : هل هناك بعث وحساب بعد الموت كما يقول محمد بن عبد الله ؟ أم أن الموت فناء ولا حياة بعده كما كان يعتقد آباؤنا ؟ ولقد اختلفوا حول هذا السؤال بين مُنْكِر للبعث وشاك فيه ﴿كَلا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلا سَيَعْلَمُونَ﴾ وليس أمر البعث كما يزعم المنكرين له والشاكين فيه إنما هو حق مبين وسيعلم أولئك وهؤلاء أن البعث حق والحساب حق كما أن الموت حق ، ثم يؤكد الله تعالى قدرته على البعث بتذكير الناس أنه تعالى هو الذي سخَّر السموات والأرض وما بينها للإنسان الذي لم يخلقه عبثاً ولن يتركه سدى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا﴾ يقول تعالى ألم يرَ منكرو البعث أنَّا خلقنا لهم الأرض مُهَيَّأة ومُذَلَّلة للحياة فوقها ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ وثبَّتنا الأرض بالجبال حتى لا تميد وتضطرب بمن فوقها ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ وخلقناكم ذكوراً وإناثاً ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى﴾ [النجم: ٤٥] لتعبدوا الله وتتعاونوا في تعمير الأرض ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ وجعلنا نومكم راحة لكم من عناء العمل ، وجعلنا الليل يستركم بظلامه لتناموا فيه بعد التعب ،

وجعلنا النهار مضيئاً لتعملوا فيه وتبتغوا من فضل الله ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ وبنينا فوقكم سموات سبعة قوية محكمة ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ وجعلنا في السماء شمساً تمد الأرض بالضوء والحرارة ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ وأنزلنا من السحب مطراً غزيراً متدفقاً بقوة هذا المطر الذي نخرج به من الأرض الحبوب والنباتات التي يعيش عليها الإنسان والحيوان ، كما نخرج به الحدائق ذات الأشجار الملتفة متشابكة الأغصان ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا * يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا * وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ لقد خلق الله تعالى كل هذه النعم التسع الدَّالة على قدرته وهي أدلة مشاهدة محسوسة ، لا يستطيع عاقل إنكار واحدة منها . فكيف ينكرون قدرته تعالى على البعث والسؤال عن هذه النعم يوم القيامة !! يوم يفصل الله بين من آمن بالله وشكر أنعمه ، ومن كفر بالله وأنعمه ، وفي الميعاد الذي حدَّده الله تعالى يأمر الله تعالى إسرافيل أن ينفخ في الصور فيبعث الناس من موتهم ويأتون إلى أرض المحشر جماعات ، ويشقق بناء السماء ويصير أبواباً ، وتقتلع الجبال من الأرض وتترك أماكنها وتصبح أثراً بعد عين وترى صورة الغبار الكثيف المُتخلِّف عن عملية قلع الجبال وسيرها فتظنها جبالاً حتى إذا ما جئته وحققته لم تجده شيئاً ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا * إِلا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا﴾ إن جهنم تراقب أهلها وتنتظرهم ، وأهلها هم الطغاة المُتَجَبِّرون الذين يدخلونها ، ويمكثون فيها دهوراً متتابعة عقوبةً لهم على تجاوزهم الحد في الكفر أو المعاصي أو كليهما ، وحرارة جهنَّم شديدة تلفح الوجوه وتحرق الجلود ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] لا يحسُّ أصحاب النار بالهواء البارد يخفف عنهم ما هم فيه من عذاب ، ولا يطفئ ظمأهم شراب بارد يرطب حلقوهم الجافة ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩] فلا يذوقون إلا ماء بالغاً الغاية في الحرارة ، وصديداً يسيل من جلود أهل النار ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلا عَذَابًا﴾ وما ظلم الله تعالى الكافرين إنما هذا جزاؤهم الذي استحقوه بأعمالهم السيئة فقد عاشوا في الدنيا كافرين باليوم الآخر وكافرين بالأدلة الكونية التي ساقها الله تعالى

على البعث وكافرين بالكتب السماوية ، ولقد أحصى الله تعالى عليهم أعمالهم وسجَّلها عليهم في كتاب أعمالهم ﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩] فذوقوا أيها المجرمون عذاب جهنم ولا تنتظروا أن يخفف عنكم ؛ فلن يكون لكم إلا المزيد من العذاب ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر:٣٦] ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا * جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ إن الذين اتقوا عذاب الله بطاعته هم الفائزون يوم القيامة بنعيم الله وجنته ، فيستمتعون بمشهد الحدائق المثمرة ويأكلون الأعناب الطيبة ، ويتزوجون الفتيات العذارى الحسان المُتَماثلات في السن ، ويشربون كئوساً ممتلئة بكل ما يشتهون من شراب ، ولا يسمعون في الجنة ما يفسد عليهم نعيمها من أقوال لا فائدة منها أو من كذب لا خير فيه ، لا يسمعون إلا الطيب من القول ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا إِلا قِيلا سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة:٢٥، ٢٦] جزاء عظيماً من ربك ، تفضلاً منه وإحساناً كافياً ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ إن مالك يوم الدين الذي يبعث الناس بعد موتهم ويحاسبهم على أعمالهم هو رب السموات والأرض وما بينهما الذي وسعت رحمته كل شيء ويوم القيامة لا يملك ردَّ حكمه مخلوق ولا التعقيب على قضائه أحد من الخَلْق وأكد الله تعالى ذلك فقال : ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا * ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾ وذلك لأن الملائكة من أعظم المخلوقات قدراً ورتبة ، وأكثر قدرة ومكانة ، فبيَّن أنهم لا يتكلمون في موقف القيامة إجلالاً لربهم وخوفاً منه وخضوعاً له ، فكيف يكون حال غيرهم ، ففي هذا اليوم يقوم جبريل والملائكة مصطفِّين خاشعين لا يتكلم أحد منهم إلا من أذن له الرحمن بالكلام ، ونطق بالصواب ، إن يوم القيامة حق لا شك فيه ، فمن أراد أن ينجو من هوله وعذابه فعليه أن يؤمن بالله ويعمل صالحاً حتى يرجع إلى الله مرجعاً كريماً ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ إنا حذَّرناكم عذاباً قريباً وقوعه . يوم ينظر المرء ما قدَّمت يداه من عمل ، ويقول الكافر متمنياً الخلاص : يا ليتني بقيت تراباً بعد الموت فلم أبعث ولم أحاسب .

فوائد وعظات

* ﴿عَمَّ يَتَسَاءلُونَ﴾ سؤال ، وجوابه ﴿عَنِ النبإِ العظيم﴾ والمجيب هو الله تعالى ، وفي ذلك برهان ناصع للكافرين المكذبين بيوم القيامة على أن الله تعالى يعلم ما يجاهرون به في العلن وما يتساءلون عنه في السر .

وإيراد الكلام في معرض السؤال والجواب أقرب إلى التفهيم والإيضاح ونظيره ﴿لِمَنِ الملك اليوم لِلَّه الواحد القهار﴾ [غافر: ١٦]

* ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا﴾ الضمير في ﴿فِيهَا﴾ فيه قولان الأول: أنها ترجع إلى الكأس ، أي لا يجري بينهم لغو في الكأس التي يشربونها ، وذلك لأن أهل الشراب في الدنيا يتكلمون بالباطل ، وأهل الجنة إذا شربوا لم يتغير عقلهم ، ولم يتكلموا بلغو والثاني: أن الضمير يرجع إلى الجنة ، أي لا يسمعون في الجنة شيئاً يكرهونه .

* ﴿عَطَاء حِسَاباً﴾ فيه وجوه ذكرها الفخر الرازي منها :

الأول : أن يكون كلمة ﴿حِسَاباً﴾ بمعنى كافياً مأخوذ من قولهم : أعطاني ما أحسبني أي ما كفاني . الثاني : حساباً مأخوذ من حسبت الشيء إذا أعددته وقدرته فقوله : ﴿عَطَاءً حِسَاباً﴾ أي بقدر ما وجب له فيما وعده من مضاعفة الحسنات فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف . الثالث : ﴿عَطَاء حِسَاباً﴾ أي كثيراً وأحسبت فلاناً أي أكثرت له . الرابع : أنه سبحانه يوصل الثواب الذي هو الجزاء إليهم ويوصل التفضل الذي يكون زائداً على الجزاء إليهم ، ثم قال : ﴿حِسَاباً﴾ ثم يتميز الجزاء عن العطاء حال الحساب . الخامس : أنه تعالى لما ذكر في وعيد أهل النار ﴿جَزَاءً وفاقاً﴾ ذكر في وعد أهل الجنة جزاء عطاء حساباً أي راعيت في ثواب أعمالكم الحساب ، لئلا يقع في ثواب أعمالكم بخس ونقصان وتقصير .

والآراء الأربعة الأولى كلها مقبولة ولا تناقض بينها عدا الرأي الخامس ففيه نظر فالتقي لا يؤمن أن الله لن يبخسه حقه فحسب بل يؤمن بأن الله تعالى سيجازيه بأحسن مما عمل ، والله تعالى لما ذكر في وعيد أهل النار ﴿جَزَاءً وفاقاً﴾ فإنه دلَّ على عدل الله تعالى معهم فجزاء سيئة سيئة مثلها ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠] فالجزاء بقدر العمل بلا زيادة ولا نقصان ، ولما ذكر في وعد أهل الجنة ﴿عَطَاء حِسَاباً﴾ فإنه دلَّ على أنه تعالى لا يعامل المؤمنين بالعدل إنما بالفضل " إذا همَّ عبدي بسيِّئة فلم يعمَلْها فاكتُبوها له حسنةً فإنْ عملها فاكتُبوها له سيِّئةً فإنْ تاب منها فامحوها عنه وإذا همَّ عبدي بحسنة فلم يعمَلْها فاكتُبوها له حسنةً فإنْ عملها فاكتُبوها له بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعْفٍ " [صحيح ابن حبان]

من الإعجاز العلمي في السورة :

* ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلأَرْضَ مِهَاداً﴾ وصلت الدراسات الحديثة إلى أن كل قارات الأرض بدأت بسلاسل من أقواس الجزر البركانية في وسط المحيط الغامر، وأن باصطدام تلك الجزر تكونت القارات علي هيئة أطواف ومنظومات وسلاسل وأحزمة جبلية معقدة ، وأن تلك المرتفعات جعلت سطح الأرض علي درجة من وعورة التضاريس لا تسمح بعمرانها ، ثم بدأت سلسلة من الصراع بين العمليات الأرضية الداخلية البانية للجبال والرافعة لها ، والعمليات الهدمية الخارجية التي تَبْرِيها وتُعَرِّيها ، وفي نهاية هذا الصراع تنتصر العوامل الهدمية الخارجية فتسوي الجبال ، وتخفض من ارتفاعاتها بالتدريج في محاولة للوصول بها إلي مستوى سطح البحر ، ولذلك فإن كل سهول ومنخفضات اليابسة الحالية كانت في يوم من الأيام جبالاً شاهقة ، ثم بَرَتْها عوامل التعرية حتى حولتها إلي السهول الواسعة ، والهضاب والأودية المحفورة والرواسخ الثابتة التي تشكل أواسط القارات اليوم حتى وصلت الأرض إلي صورتها المناسبة للعمران بواسطة الإنسان ، ولذلك يمن علينا الله تعالي بتمهيد الأرض ، ويلوم المنكرين للبعث بتوجيه هذا اللون من الاستفهام التقريري ، التوبيخي، التقريعي ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلأَرْضَ مِهَاداً﴾ أي ألم نجعل لكم الأرض فراشا موطأ كالمهد لتمكينكم من الاستقرار عليها، والتقلب في أنحائها، والانتفاع بما أودعناه لكم فيها .[1]

* ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ كل من ألواح الغلاف الصخري للقارات والمحيطات يطفو فوق نطاق الضعف الأرضي الأعلى كثافة وهو نطاق مرن ، شبه منصهر، عالي اللزوجة ولذلك فهو يتأثر بالضغوط فوقه ويتحرك استجابة لها ، وبنفس هذا التصور يمكن تفسير الاختلاف في تضاريس سطح الأرض علي أساس من التباين في كثافة الصخور المكونة لكل شكل من أشكال تلك التضاريس ، فالمرتفعات علي سطح اليابسة لابد وأن يغلب علي تكوينها صخور أقل كثافة من الصخور المحيطة بها ، ومن ثم فلابد وأن يكون لها امتدادات من صخورها الخفيفة نسبيّاً في داخل الصخور الأعلى كثافة المحيطة بها ، وبفهم دورة حياة الجبال ثبت أن كل نتوء أرضي فوق مستوى سطح البحر له امتداد في داخل الغلاف الصخري للأرض يتراوح طوله بين ١٠ و ١٥ ضعف ارتفاعه ، وكلما كان الارتفاع فوق مستوى سطح البحر كبيراً تضاعف طول الجزء الغائر في الأرض امتداداً إلي الداخل وكلما برت

---

(1) د . زغلول النجار " الأرض في القرآن الكريم " دار المعرفة بيروت – لبنان ص ٢٠٨، ٢٠٩ بتصرف .

عوامل التعرية قمم الجبال ارتفعت تلك الجبال إلي أعلي ، وتظل عملية الارتفاع تلك حتى يخرج جذر الجبل من نطاق الضعف الأرضي بالكامل ، وحينئذ يتوقف الجبل عن الحركة ، ويتم بريه حتى يصل سمكه إلي متوسط سمك اللوح الأرضي الذي يحمله ، وبذلك يظهر جذر الجبل علي سطح الأرض، وبه من الثروات الأرضية ما لا يمكن أن يتكون إلا تحت ظروف استثنائية من الضغط والحرارة لا تتوفر إلاَّ في جذور الجبال .

فسبحان الذي وصف الجبال بالأوتاد وهي لفظة واحدة تصف كلاً من الشكل الخارجي للجبل ، وامتداده الداخلي ووظيفته ، لأن الوتد أغلبه يدفن في الأرض، وأقله يظهر علي السطح، ووظيفته التثبيت .[1]

* ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيلَ لِبَاساً﴾ قد ثبت بالتجارب العملية والدراسات المختبرية أن أفضل نوم الإنسان هو نومه بالليل ، خاصة في ساعات الليل الأولي ، وأن إطالة النوم بالنهار ضار بصحته لأنه يؤثر علي نشاط الدورة الدموية تأثيرًا سلبيّاً، ويؤدي إلي شيء من التيبس في العضلات ، والتراكم للدهون علي مختلف أجزاء الجسم ، وإلي زيادة في الوزن ، كما يؤدي إلي شيء من التوتر النفسي والقلق .[2]

من لطائف النظم القرآني :

* ﴿عَنِ النَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الإيجاز بحذف الفعل والمعنى : يتساءلون عن النبأ العظيم .

* ﴿كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ﴾ إطناب بالتكرار للوعيد والتهديد ، أو إطناب بالتنوع لاختلاف جزاء المؤمنين عن جزاء الكافرين يوم القيامة .

* ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا﴾ استفهام للتقرير ومثله ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ .

* ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلأَرْضَ مِهَاداً * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ تشبيهان بليغان حيث شبه في الأول الأرض بالمهاد الذي يفترشه النائم ، وفي الثاني شبه الجبال بالأوتاد التي تثبَّت الدعائم . ومثله ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيلَ لِبَاساً﴾ حيث شبه الليل باللباس في الستر .

* مقابلة بين ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيلَ لِبَاساً﴾ وبين ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً﴾ لبيان أن جعل الله تعالى النهار للسعي وطلب الرزق والليل للنوم والسكن نعمة تستحق الشكر ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧٣]

* ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ كناية عن موصوف وهو الشمس .

---

(1) نفسه ص ٢١٢- ٢١٥ بتصرف .

(2) د . زغلول النجار " الإشارات الكونية في القرآن الكريم " جريدة الأهرام بتاريخ ٢٣ / ٧/ ٢٠٠١

* ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا * إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ ثلاث تشبيهات بليغة تبين حال السماء والجبال وجهنم يوم القيامة حيث شبه السماء التي كانت بناء مزيناً ما له من فروج بالأبواب بلا بناء ، وشبه الجبال التي كانت رواسي بالسراب الذي لا وجود حقيقي له ، وشبه جهنم بالمرصاد في دقة المراقبة .

* ﴿لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ أسلوب قصر بتقديم خبر إن لِلطَّاغِينَ على اسمها مَآبًا للتوكيد والتخصيص ، وفيها إطناب بذكر الخاص بعد العام ، فالعام جهنم ، والخاص : لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ، لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ، إِلا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا .

* ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ استعارة مكنية حيث شبه البرد بماء يشرب . ومثله ﴿إِلا حَمِيمًا﴾ .

* ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً﴾ أمر غرضه الإهانة والتحقير وفيه أيضاً التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والإهانة .

* الطباق بين ﴿بَرْداً.. وحَمِيماً﴾ لبيان شدة عذاب الكفار .

* ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أسلوب قصر بتقديم خبر إن لِلْمُتَّقِينَ على اسمها مَفَازًا للتوكيد والتخصيص ، وفيها إطناب بذكر الخاص بعد العام فالعام " مَفَازًا " والخاص : حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ، وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ، وَكَأْسًا دِهَاقًا ، لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا .

* ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ طباق بين السموات والأرض لشمول خلق الله تعالى السماء والأرض وما بينهما .

* ذكر العام بعد الخاص ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلاَئِكَةُ صَفّاً﴾ الروح وهو "جبريل" داخل في الملائكة ، فقد ذكر مرتين مرة استقلالاً ، ومرة ضمن الملائكة .

* ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ تراباً مجاز مرسل عن الكافر علاقته ما كان ، وليت أسلوب إنشائي تمني غرضه التحسر .

* توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات ﴿مِهَادًا .. أَوْتَادًا﴾ و ﴿حِسَابًا .. كِذَّابًا .. كِتَابًا .. عَذَابًا .. أَعْنَابًا .. أَتْرَابًا .. كِذَّابًا .. حِسَابًا .. خِطَابًا .. صَوَابًا .. مَآبًا .. تُرَابًا﴾ يعطي جرساً موسيقيّاً تطرب له الأذن ، ويضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة، وينبه الذهن لإدراك المعاني .

***